

# مُاقِسات

## إلى الأستاذ يوسف الشاروني

كنت علي وشك أن أكتب إلى الدكتور سهيل ادريس راجياً منه أن يعيد نشر مقالي « مفهومات في الانسان والفن » كرد على تمليكك عليه في العدد الماضي ، فلا خلاف بينك وبين الكاتب الذي دفعتني كلامه يوماً إلى كتابة المقال . وقد عدت الى القضايا نفسها وعرضت لها بالفهم نفسه ، وإن كنت لم تبد رأياً فيما يخص كلامي عن أهل الكف ، وعن البحث الذي أعجبك . أما فيما يخص كلامي عن موقف الفن والقصة خاصة من التعبير عن الإنسان ، فقد اعلنت كذلك الرأي نفسه الذي أعلنه صاحبك من قبل حيث تقول إنه « ليس هناك فن تشغله قضايا الإنسان المجرى » . أما ذلك في هذه المرة فبو أن التجريد عملية بعدية يقوم بها القارئ أو الناقد ؛ ولست أدري ما معنى هذا الكلام على التحديد : أيحدث القارئ أو الناقد في الأثر الفني ، في قصة مثلاً ، شخصيات غير الموجودة فيها ، فيجرد ما أراده الفنان أن يكون غير مجرد ؟ لقد كنت فيما أذكر أتكلم عن العمل الفني بعد أن يتم ، ومن وجهة نظر القارئ والناقد ، أي الناس ، ولم أكن أتحدث عن العمل الفني وهو في ذهن صاحبه جنين . أو شعور غامض ، ولم أكن أتحدث عنه وقد ألقى به صاحبه في وسط محيط او في صحراء ، بحيث لا يراه الناس أو يحدون موقفهم منه . وسواء قام التجريد من القارئ أو الناقد أو الفنان ، فهو تجريد قائم في العمل الفني ذاته ، على أساس أن القيمة الأولى فيه للانسان لا البيئة ولا لأي ظرف خارجي آخر . ومن العجيب أن تضع كلمة « معين » في مقابل كلمة « مجرد » ولست أدري ما يبرر ذلك عندك ، في حين أن سلوك « النسا » باعتبارها إنسانة لا تخضع لسيطرة خارجية ، لا يبرر أن تعدم تعينها في مجال شخصيه الإنسانية . إن « إلينا » شخصية معينة فيما هي في التزامها لمنطق ذاتها إنسانة مجردة من سيطرة انسابها الى وطنها أو أسرتها أو طبقتها أو غير ذلك من الظروف التي تحلت منها واختارت في حياتها موقفاً لا يعتمد اعتماداً سابقاً على أحدها . وكذلك لم افهم قولك « ما معنى ضرورة التجسيد في العمل الفني إذا كان التجريد هو الهدف ؟ » وأغلب الظن أن السؤال ناتج عن فهم لم أقصد إليه للتجريد الذي لا يتنافى أبداً مع التجسيد أو التعيين ، ومن اللازم أن أقول هنا ان مفهوم « التجريد » ليس اصطلاحاً يتعين استعماله بمعنى محدود ثابت ، أن التجريد في الفن ، كما قلت ، وببساطة ووضوح : ان يكون الإنسان لا البيئة ولا نظرية ما ، ولا أي عامل خارجي آخر ، هو مصدر القيمة في الفن . وازن بين الأطفال في قصة « المدينة القديمة » لاهر نبرج وبين الاطفال في الفصل السادس ، والعشرين من قصة « شارع السردين الملب » لشتاينيك ( ترجمة الأستاذ البعلبكي ) - الأطفال في القصة الأولى ضرب من الدمى مصنوع لخدمة شيء معين ، أما في قصة شتاينيك فهناك اطفال حقيقيون : من خلال العادي والتكرار ينفذ شتاينيك الى الصدق في الحياة ، هذا الذي يمرض لنا أعماق ما يمكن أن ينزع الفن الى التعبير عنه ، دون الحاجة الى قصد سابق ، نظري غير معاش في الغالب .

وإذا كنت قد فهمت سؤالك لي عن ماهية الإنسان ، فانا احببك على أساس فهمي للسؤال بعد جهد ، بأنها ليست عدة أفكار تكون بناء نظرياً للانسان يتم بالسكون والكمال مما قد يكون مضموناً للفلسفة المثالية ( فأتالم ادرس القضية من هذا الجانب ) ، ولكنها المظاهر الداخلية والخارجية المتحققة في كيان سلوكي لا يتم بالسكون والثبات السابقين . إنها لا تنفصل عن الفعل ، عن الوجود ، فهي لإيجابية ذات فسيالية سلوكية بالنسبة للانسان الذي تحققت فيه . إنها في الوجود الذي يحتويها ، ومتحققة في كل انسان بتفاوت . وهنا أحب أن أشير إلى أنني لم استطع ان افهم وضك لكلمة « علمي » التي وصفت بها ما كتبه الأستاذ حسين ، وكلمة « مثالي » التي وصفت بها ما كتبه في مقالي ، على صورة مفهومين متقابلين ، ما العلاقة بين الكلمتين ؟ هل كلمة « علمي » تساوي عندك « واقمي » ؟ أو كلمة مثالي تساوي « غير علمي » ؟ أو لا تكون على خطأ لو كان هذا هو ما في ذهنك ؟ ام ان العلاقة بينها هي العلاقة بين كلمتي « بعدي » و « قبلي » مع ان الكلمتين الاخيرتين لا تتساويان مع المفهومين السابقين على الاقل لأنها منطقياً متقابلتان بينا علمي ومثالي غير متقابلين . دعني أسألك بعد ذلك هل مفهوم البيئة عندك هو التلوج والرحافات والحيول ؟ ألا ترى في هذا المفهوم وصفاً للبيئة من الخارج فقط ، وأنه وصف لا يقف امامه إلا دأرس الجغرافيا الطبيعية دون البشرية فضلاً عن دأرس فن ؟ إن هناك جانباً آخر في البيئة هو ما يعنينا أولاً وقبل كل شيء في الفن ، وهو حقيقة علمية لا ينقضها اعتناك على توضيح مفاهيم الكلمات التي تستعملها ، او بالأحرى استعمالها في مجال واحد من مجالات مدلولاتها ، أليس مظهر رئيسياً من مظاهر البيئة ما يتركه احتكاك الإنسان بالطبيعة فيه من خصائص نفسية وجسدية تميزه عن غيره في البيئات الأخرى ؟ في بعض قصص نجيب محفوظ تجسد شخصية « الفتوة » شخصية مصرية لا لأنها تتخذ جالاً لسلوكها أحياء مصرية معينة ، ولكن لأنها تتصف بالخصائص النفسية التي تتسم بها هذه الشخصية في ذلك الجانب من جوانب الواقع المصري ، والشخصيات المصرية في « قنديل ام هاشم » ليحيى حقي ، شخصيات مصرية لا لأنها تتحرك في نطاق حي « السيدة » بل لتحقيق تلك الصفات النفسية البارزة في نظرة تلك الشخصيات الى الحياة والمصير ، وفي علاقاتهم فيما بينهم - خذ بعد ذلك « ايفان » أو « أبوشا » في « الإخوة كرامازوف » . إنك لا تستطيع أن تتميز في هذين النموذجين خصائص نفسية معينة تربط بينها وبين بيئتها روسيا ، إنها نماذج إنسانية تتحرك بفلسفتها ونظرتها الى الحياة في مجال واسع ... في كل بيئة .

قل لي بعد ذلك هل يكون طبيب القرية من ألمانيا ، أو تشيكوسلوفاكيا ، حين يعجز بلا مبرر واضح عن رد السائل عن خادمته ، وحين يقفز من النافذة نافذة المريض ، ليركب عربته ، ثم يسير في « الصقيع » إلى حيث لا يدري عاجزاً مرة أخرى عن الحصول على مصطفه المعلق بمؤخرة العربة - حسي أن أقول لك إن هذه القصة عندي لا قيمة لها بواقفيتها الحرفية إن صح التعبير ، يقدر ما تمثل قيمتها العميقة الفنية في رموزها الدالة على أزمة الإنسان وغربته وضياعه بازاء واقعه ومصيره ، وعلى هذا الأساس تأخذ التلوج دلالاتها الإنسانية عندي كلما قرأت القصة ، كما تفقد تماماً دلالاتها الجغرافية - المحدودة ، أما إذا كنت تريد أن تقف بفهم البيئة في الفن عند حدود الجغرافيا الطبيعية ، ثم تفهم التلوج في القصة بدلالاتها المباشرة ، فلا بأس من أن أعترف لك بأن ذاكرتي قد خاتني ، وهي تخونني دائماً بعد أن أقرأ طبيب القرية ، وكثيراً ما أقرأها فلا أحس بالخصائص التي تميز في بطلها أو في إطارها العام بيئة معينة ،

كما هو عهدي كذلك بأبطال كافكا - وأحب أن أسألك هنا : إلى أي بيئة ينسب أشخاص قصتك « الطريق إلى المعتقل » وأنت متأثر فيها إلى حد بعيد بأجواء كافكا ونماذجه ، وبطبيب القرية على وجه الخصوص ... إلى أي بيئة ينسب « البطل » و « صالح » و « خليل » ؟

أما قولك « إنني اعتمدت على جملة واحدة للأستاذ حسين في عرض رأيه ومناقشته فقد كان مقبولاً لو أنك أتيت من مقال الكاتب وخاصة حديثه عن شعر المدد الذي نقده ، بما يتنافى مع المفهوم الذي جمته تلك الجملة وأكدته طريقته في الفهم والتذوق .

وبعد فلقد أثبت بتعليقك شيئاً كنت متشككاً فيه ، ذلك هو ضرورة مقالتي عن تلك القضايا التي كنت أحسب أن الحديث فيها لا يعدو تأكيد بديهيات ، ومسلمات عامة ، وإن كنت قد شعرت بالأسف لأنك - أنت - صاحب التعليق .

## وجاء النقاش

القاهرة

★

## حول مقال « أدبنا الملتزم »

نشرت هذه المجلة في عدد أيلول الماضي مقالاً نقده كاتبه الاستاذ يوسف الشاروني في العدد السابق . وقد تفضل الناقد المحترم فخص مقالنا عن « أدبنا الملتزم » بكلمة ، لسا نكتم أننا سررنا بها . وفولنا « سررنا » هو من باب التجاوز ، والواقع أننا ابتسمنا بل ضحكنا أيضاً . فالناقد المحترم لم يقتصر بمرصه لطريقته الخاصة في فهم المقال على إعطائنا المثال الرائع والدليل القاطع على عنصر من جملة عناصر المشكلة التي أثبتنا أنها مشكلة العرب الرئيسية ، بل خالص بطريقة الاستنتاج الى التعريض بالنوايا ، والطمع في الوطنية ، معتقداً أنه يكشف سراً ويفضح مؤامرة ، وذلك في حماس ظاهر . وكنا نود أن نبجته عن هذا النزول السريع الى هذه المنازل التي وضع نفسه فيها ، كنا نود ذلك لا لشيء سوى أنه نشر كلمته على صفحات مجلة تعنى بشؤون الفكر ، وأنه وعد في مستهل نقده بأن « يأخذ فيه بروح العلم » . لذا لن نجاريه في هذه المزالق التي ارتضاها لنفسه ، لأن ذلك لبس من عادتنا ، وحسبنا أن غزوه في نيتنا فام على استنتاج شاذ ، وأن كل من قرأ مقالنا وكل من يتعمق ما ننشر ، يعلون جيداً أين نحن وأين هو بكلمته هذه من العمل الوطني الحق .

قالنا في مقالنا إن مشكلة العرب الرئيسية هي التأخر ، وأبرزنا حقيقة هذه المشكلة وخطورتها بإيضاح جذور وأصول لها عميقة ، ولم نقف عند مظاهر الحياة الاجتماعية التي تخفي بخداعها وبريقها تلك الجذور والأصول . ثم دعونا الى العناية ببحث هذه المشكلة ، باعتبارها موضوعاً من موضوعات الأدب الملتزم ، واستغربنا موقف الكتاب الذين يتجاهلوننا أو يغفلون عنا ، للتلمي بموضوعات لا ترقى الى أهميتها ، وضربنا مثلاً على ذلك ما فعله أحدهم ، حين واجه نقداً مفيداً للواقع العربي بوفرة من الحماس الخاوي الذي جمه يراه لوثاً من التهجيم على الكرامة والدعاوة للاستعمار . وقد أبنا في التعليق على موقفه أنه لا يجدم إلا أسباب استقرار التأخر ، لأنه يعاون في طمس الحقائق المرة التي من جلائها وحده يمكن أن ينبعث نور الرقي الصحيح ، ولأن القوة الروحية التي هي النتيجة الطبيعية لهذا الرقي ، هي الحرز المكين لكل استقلال مهما كانت الظروف ، ولأن انعدامها مدعاة في أي وقت وأي ظرف لتضييع الاستقلال أو للمجز عن نبله . وسقنا للتدليل على هذا مثال البلاد العربية التي نالت استقلالها السياسي ولم

تفد منه شيئاً لتعزير كيانها بحكم افتقارها الى القوة الروحية التي لا تتأني إلا من تمثل الرقي الخالص ؛ والكل يشهد اليوم ماذا يعاني هذا النوع من الاستقلال من انتهاك لحرمته ، ومن خطر لزواله الكلي ، دون أن نلص في الشعوب قوة روحية تقف حائلاً منيعاً في وجه ذلك . هذا هو ماخص الفكرة الرئيسية في المقال ، وقد انتهينا الى القول : « وهكذا نرى كيف أن العجب أن يمتلكنا بعنف وقوة ، حين نسمع بكتاب يفتون الالتزام ، فلا يجردون غير الاستعمار أو نحوه كموضوع للتناول يبذلون فيه الجهد دون جدوى حقيقية ، مع أن الاستعمار قد جلا عن البلاد أو هر في طريق الزوال ، في حين أن ما ظل راسخاً فيها ، وما يجدد تأخرها ويمهد الأسباب لموادة النفوذ الأجنبي ذاته أو بقاءه ، هو استعمار الأثرة في النفس ، واستعمار السطحية في الفكر » .

وقد أعجبت الناقد المحترم تسميتنا العرضية في سياق المقال للتحرر الذي أحرزته بعض الدول العربية تحرراً سياسياً ، ولم نقل إنه تحرر عسكري فقط ، فأحب أن يعتبر أننا قد غفلنا أو تغافلنا عن أمر النفوذ الأجنبي ، مع أننا أوضحنا فكرتنا بالاستدراك القائم في معنى لفظة « أو » المتكررة مرتين في الفقرة الآتية الذكر ، وهو إذ يفيد توسيع نطاق الاعتبار ، يشير ضمناً إلى أن المجال هنا ليس مجال البحث والتبسط في هذا الموضوع . وهذا فضلاً عن أننا عطينا جيداً بتأكيد أهمية القوة الروحية التي حددنا بها قيمة الاستقلال أياً كان نوعه . ولو تأمل في مدلول القوة الروحية هذه ، وفي سائر فقرات المقال وفي مغزاه العام ، لأدرك أننا لا نعلن به فقط ثورة على اتجاه من يعملون على « ههددة الأوضاع الراهنة وإطرائها » أو « تجاهاها » ، ولكن عرضنا أسس البناء العلمي الذي يجب أن يتم عمل كل ثورة ، وذلك بأن أوضحنا ضرورة إيجاد القوة الروحية التي تنشق في الواقع عن تمثل الرقي الصحيح . فلسنا ممن يكتفون بالانفعال العاطفي لمعالجة المشاكل كما فعل الأديب موضوع الاستشهاد في المقال ، وكما يريدنا الناقد المحترم أن نفعل . بيد أن صاحبنا لم يشأ أن يفهم كلامنا على غير هواه ، فرمانا بتجاهل أمر النفوذ الأجنبي ، وجعلنا يتمج من جمعنا في الحديث بين التأخر العربي ، وبين الاستعمار الزائل ، وبين وجوب الاهتمام بالقوة الروحية ، وظن أننا نرمي الى ثني العزائم عن مكافحة الاستعمار ، لكي يتلبي الناس بأموار خاوية لاغية حينها قوة روحية وتقدماً الخ .. وحجبت معه الفكرة فقال ما يعني أننا نسعى الى تخدير الشعوب في سبيل خدمة الاستعمار ، وهو ادعاء مردود من قبل أي قارئ يتمتع بأدنى قسط من التمييز ، وراح يسائلنا عن « العلاقة القوية بين التحدث عن الروحية وبين وجود الاستعمار بشكل أو آخر » ، وعن الحجة التي تعمل لمصلحتها ، ويستغرب « كيف سمحت مجلة الآداب بنشر المقال » ، ثم يتخذ لهجة نائب عمومي ليدعو الى « كشف هذا اللون من التفكير وفضحه حيثما وجد » ...

مهلا ، رويدك يا هذا .. فلم تبلغ بنا السذاجة الى هذا الحد لنكشف عن ميولنا الاستعمارية بهذه البساطة والصراحة ، ويجب علينا على الأقل ان ننداري ونحاذر الأذكياء الفطناء الذين يفضحون هذه الميول بأقلامهم العتيبة .. أليس هذا ما يقضي به المنطق ، منطلق الحياطة الوطنية الذي أبيت إلا ان تجردنا منه أيضاً ؟

بقي أن نعرف كيف يتصور صاحبنا مدلول « القوة الروحية » ، وما تعنيه « الروحية » و « المثالية » بوجه عام . فهو يبدو غير مقتنع بقيمة هذه الألفاظ الفارغة ، ولا يوافقنا على أن بها شيئاً من الجدوى

بالنسبة لحل مشكلة التأخر العربي ، بل يذهب الى اعتبارها خيالات سرابية غرض الحديث عنها مجرد التضليل . ولإزاء هذا ، نربأ بأسفنا أن نعلنه إياه ، ولا نرى ضرورة أو فائدة من الإطناب في شرح هذا الموضوع الذي عقدنا الفصول المتعددة عنه ، وإنما ننصحه بالرجوع الى ما كتبنا في افتتاحيات مجلة «الأديب» ، ولا سيما ما نشر في أعداد يونيو وأغسطس عام ١٩٥٢ ، وسبتمبر ونوفمبر عام ١٩٥٣ ، وفبراير عام ١٩٥٤ .

إن هذا الموقف بالذات هو ما يؤدي رأينا في أن مشكلة التأخر العربي هي في الأساس مشكلة مفاهيم : فالتمدن يبدو على أنه فقط صورة من التلبس بقشور من المدنية خادعة ، والوطنية هي عاطفة خاوية ، والروحية مجرد مزيج أجوف من نشوة العاطفة والخيال . وجلاء الحقائق بإبادة هذه الأوهام المستبدة هو وحده الكفيل ببناء إرادة التقدم والنهوض والخلاص من كل قيد مادياً كان أو أدبياً . ويخطئ صاحبنا كل الخطأ إذا ظن أن المادة هي التي تسير العالم اليوم ، فالقوة التي تحرك الأمم الراقية ليست هي المادية ، بل الروحية ، فالروحية هي وراء كل خلق لهذه الأشكال المادية المتعددة التي يراها في نتاج الحضارة الراهنة . ولا يظن أن بالعالم العربي اليوم شيئاً من الروحية ، فلو كان أمره كذلك لما كان خاله الحاضر حال الخزي الذي تردى فيه . وليثق بأنه بغير الروحية الشاملة في النفوس ، وبغير القوة الروحية التي يمكن ان تتمتع بها قلوب الشعوب ، لا قيمة لأي استقلال ينال ، ولا لأي استثمار أو نفوذ أجنبي يزول ، فالاستقلال في مثل هذا الوضع الآسن يباع ويشترى دون ان يواجه أي وازع ، والاستثمار في أي شكل كان عائد لا محالة . ولقد ثبت بالدليل المادي القاطع أن القوة الروحية تفعل فعلها الرائع حتى في أبعاد الأحوال عن أي كيان استقلالي ، ولسنا هنا بحاجة الى إيراد الشواهد والأمثلة ، فهناك من الأمثلة القريبة المعروفة ما إذا أوردناه يؤلم الشعور القومي . وليذكر أن الشعب الخامل الجاهل ، والمعزول بالأوهام والفتات من قشور الحضارة ، سرعان ما يضع بيده استقلاله ولو كان كاملاً ، أو يدفنه في دياجير جهله وغفلته ، بحيث يصح القول فيه إن استقلاله وعبوديته سيان . وهذا الكلام ليس للتخدير ، ولصدقنا هذه المرة . ولعلم أن تساؤلنا عن رأينا في النفوذ الأجنبي الذي خيل اليه أننا نتجاهله ، إنما جاء في غير محله ، وأنه في الواقع برهان لنا وليس له ، لأنه بالفعل من جملة ما رميننا الى التنبه اليه في مجمل روح المقال ، بمعنى أنه إذا كان هناك نفوذ أجنبي من أي نوع كان ، فالسبب الوحيد هو انتفاء القوة الروحية . وهكذا يتضح مما تقدم أن الحديث عن القوة الروحية ليس أداة تمويه وإلهاء وتخدير ، كما تهبأ له ، وإنما هو لب الموضوع وحجر الزاوية في درسه .

على أنه يبدو لنا أن لناقداً المحترم وجهة نظر خاصة أخرى بالنسبة للدلولي الروحية والمادية ، قد تكون هي التي أملت عليه كلمته بكاملها . فلعله يعتقد بأن المادية تمثل فريقاً سياسياً من دول العالم ، يقابله فريق آخر تبنى الدعوة الى الروحية . ونحن لا نحب أن نصدق هذا ، لأنه تصور شاذ وغريب عن حقيقة الموضوع ، ولأننا نؤمن بأنه لا سبيل المرء في هذه البلاد الى أن يصبح عضواً نافماً في مجتمعه ، ولا أن يصبح أدبياً ومفكراً يقوم بخدمة التوجيه بين مواطنيه ، إلا إذا تحرر من مثل هذه القوالب الدخيلة المصنوعة في الخارج والتي قد يلغونها بعض الناس . ولذا ننصحه مخلصين بأن يتمتع جده عن هذه القوالب إذا كان قد اقترب منها ، وان يخرج من إطارها اذا كان قد ولجها ، وذلك على الأقل حين ينبري للكتابة باسم «روح العلم» .

إننا نود ان يؤكد أن ما صدرنا عنه في كتابة مقالنا ، إنما هو إيمان راسخ بان الشرط الأساسي لنهوض اية امة هو ظهور موجة جامعية فيها من نقد الذات ؛ فبدأ « لعرف نفسك » هو في الحقيقة نقطة الانطلاق نحو اي إصلاح جوهرية ، سواء اكان ذلك للفرد ام للجماعة . ونحن اذا كنا نرى أن مهمة اثاره هذا النقد وتوجيهه من اقدس المهام الملقاة على عاتق الكتاب العرب ، نعلم انها مهمة دقيقة وشائكة ، وان على القائم بها ان يتوقع التهم والطعن حتى في نيته وإخلاصه ، لان ما سيصطدم به هو من اهواء العاطفة لا منطق العقل ، ولكن التضحية في سبيل هذه المهمة واجبة ، وهي لا تضير شأن صاحبها إلا إذا كان في قيام المرء بالواجب ضير عليه . والجدير بالذكر أننا وجدنا في صاحبنا خير مصداق لما توقعنا ، وهو في الواقع لم يخشدهم بموقفه سوى وجهة نظرنا ، إذ أنه بعد أن قرأ مقالنا الذي اتخذ صيغة النقد الاجتماعي في روحه ، واستهدف بنقده صورة معينة من التفكير ، فدأ على هذه الصورة عينها ، وتصرف بوحياها ، وفدنا لنا وللقرء مثلاً عينا ساطعاً يؤيد كلامنا ، وينبت أننا أصبنا نقطة حساسة ، ومسألة جوهرية في صلب الوجود العربي ، هي أخطر مما قد يظن ، وينبغي ان تمأ لها الجهد المخلص . وهو كمثل ذلك الذي استشهدنا به في المقال ، وشأنها في حل المشاكل شأن من يشتم اسبابها بدلاً من ان يعمل على إزالة هذه الأسباب .

والطريف ان صاحبنا شديد الثقة بنفسه لدرجة انه راح يلوم ويسأل كيف سمحت المجلة بنشر المقال ... سامحه الله ! إن الجواب على سؤاله بسيط ، فالذين « سمحوا » بنشر المقال قد فهموه على حقيقته ...

محمد وهي

★

## حول قصيدة «الصامدون»

قرأت في العدد الماضي تعليق الاستاذ يوسف الشاروني على قصيدة «الصامدون» ، ولقد ادهشني الاحكام المتسرة التي اطلقها الصديق الكاتب ، هذه الاحكام التي أبت الا ان تواجه عقيدتي مشبعة « بمقيدة » صاحبها ، والا ان تحكم على القصيدة من خلال بضع كلمات لم ترد عفواً بطبيعة الحال ، غير ان الكاتب وجد فيها « دعاية » لاتجاه ما !!

ان الحكم على قصيدة من خلال بعض كلماتها التي تكون هي وسواها ثقيلة على بعض الآذان « المرهفة » يذكرني بالحادثة التالية : يروون ان احد الاساتذة ، في قطر شقيق ، عرض على لجنة المناهج الوزارية كتاباً لتدريس اللغة العربية ، استله بالقول المأثور ( اطلبوا العلم ولو في الصين ) ... وكان ان رفضت تلك اللجنة ذلك الكتاب بدعوى ان « الصين » اصبحت « حراء » !! ، بيد ان المؤلف اعاد الكتاب الى نفس اللجنة باستهلال جديد : « اطلبوا العلم ولو في فرموزا !! »

انني ارجو الاتسرب مثل هذه الاساليب البوليسية التي ترى ، بسطحية غريبة ، في كل شيء مجالاً للتهمة والدعاية لاتجاه ما ، الى اقلام اخواننا الكتاب الذين يرون الى مجلاتنا وكتبنا تسقط في كل يوم صريمة مثل هذه المقاييس .

انني الآن في سبيل دحض آراء الاستاذ يوسف الشاروني ولست في سبيل اتهامه وهو الكاتب الذي ارجو منه وله كل خير ، واليه ملخص ردي :

١ - وقف الكاتب عند كلمة « الواعي » الواردة في المقطع التالي :

ونسأؤنا الشكلى ، ووحشتنا ، وجارتنا المجوز

- بالامس سبق وليدها الواعي الى ليل السجون

مروقة عماية ، تطرد بالتساويد المهموم !

واعبر مجرد وجود تلك الكلمة دعاية لانتباه ما ، في حين ان كاتب هذه السطور قصد - كما هو واضح - كيف ان الوعي يسوق الاحرار ، في المجتمعات القديمة ، الى ظلام السجون ، وكيف يصنع الاحرار الواعون مصيرهم بانفسهم في حدود انتمارهم في الكفاح لتحقيق عالم افضل ضمن كفاح المجموع ، وكيف ان الجدل يدفع بالفرد غير الواعي الى تعليق كل شيء على القضاء والقدر ، حتى الارهاب مثلاً ، والى اللجوء « للتساويد » لطرد المهموم . مجرد محاولة للتعبير عن تناقض . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان « الوعي » الاجتماعي الذي لا بد ان يتحول ، عند سريانه الى الآخرين ، الى قوة نوعية ومادية تستطيع القيام بالتغيير هو الذي قاد ذلك الوليد الى السجن ، وأن السجن لم يطبق عليه بسبب جريمة سرقة او ازهاق روح ، وان هذا الوعي ليس هو « اللقانة » او « الحدس » كما يعبر برجسون وليس هو « وعي الذات لاجل الذات » كما يعبر احد كتاب الوجودية ، .. انه الوعي الذي يثير القوى السائدة فتندفع لتشييد سجون القرن العشرين للحفاظ على مصالحها واعاقا التقدم .

٢ - يرى حضرة الكاتب انه يتحتم علينا ان تقدم « رشوة » الى القارئ عند استعمال بعض الكلمات ، والا حلت على محل الدعاية المقصودة . جبذا لو تقدم الكاتب باقتراح « يعلم » فيه بعض الكلمات بشارة خاصة بحيث لا تستعمل الا ذاتها ، حيث يجري تقديم « الرشوة » .. نحن نريد ان نعرف هذه الكلمات ، .. ومهما يكن فالذي اعلمه ان اهم خاصية للادب الواقعي هي الوضوح ، الوضوح الذي يجعلنا في موقف مباشر امام القوى التي نصارعها ، وما استعمال الرمز او اي رشوة مقلدة الا لون من الوان التهرب من المسؤولية ، كما انني اعلم ان للحقيقة جانباً واحداً : لا او نعم . وهذه حقيقة جدلية لا ينكرها الكاتب ، وان التضحية بالحقيقة في سبيل وجهة نظر فنية مشكوك في صحتها ، شيء كبير . ومن جهة اخرى ارى من الصحة بكان ان نطلب من الشاعر ان يعتمد الالفاظ المترمة والمجازية في دلالتها على المعاني ، ولكن اكثر المواقف ، في الادب الواقعي ، تستوجب اعتماد الكلمات المطابقة في دلالتها على المعنى كما يعبر المناطق ، وان اعتماد تلك الكلمات بصورة تجعل لها محلاً في الخارج ، لا مجرد رنين اجوف ، لا يحتمل معنى الدعاية المقصودة .

يقول الاستاذ ماركوت هاينان « يجب تسجيل المشاهد بصورة تظهر الافراد كممثلين حقيقيين للمجتمع ، ومن اجل ذلك كان لمصائرهم كممثلين للمجتمع - الواعي في ليل السجون - مغزى اوسع وقيمة اكبر من مصائرهم كافراد » .

٣ - ان الادب في اساسه ظاهرة اجتماعية ، وقد برزت هذه الظاهرة بصورة اكثر تأكيداً ، واشد ارتباطاً بالحياة ، في هذا العصر الذي نعيشه ، وتبعاً لذلك اصبح للادب معنى يحمل معنى الدعاية في اطوار ذاته . وارجو الا يجاول الصديق يوسف ايجاد تناقض بين هذا القول واقوال السابقة ، لان احتمال معنى الدعاية هو ما يفرضه الواقع طبقاً لهذه المقولة :

ادب العصر الحديث يستلهم الحياة

والحياة نظم واوضاع واشكال متناقضة متطورة

واذا فالادب الذي يعكس قيم هذه النظم وهذه الاوضاع لا بد ان

يلتزم جانباً منها . ليس هذا مجرد تصور ، بل مما يؤكد الواقع ويؤمن به اولئك الذين يرفضون كل تفكير غيبي مسبق . خذ مثلاً قصة « رجال وفئران » لجون شتاينيك ... ليست هذه القصة تنطوي على فضح بشاعة النظم الاستغلالية ، على « دعاية » ضدها... ثم لمصلحة من هذه الدعاية ، ليست في سبيل نقيض تلك النظم ، كذلك قصة « الام » لمكسيم جوركي تحمل نفس الطابع وذات اللون من كشف مساويء نظام متهرىء ، والدعوة لحياة افضل ، وفي ميدان الشعر - ساهل ذكر شعراء عالميين نضالين خوف ان اتهم بالتحيز - لناخذ اروع قصيدة كتبها الشاعرة الانكليزية المسيحية ايديث سبتويل « عصر الذرة » ليست هذه القصيدة الطافحة فناً واصالة وشاعرية مبدعة دعوة الى سيادة السلام والكفر بقيم حضارة استعمارية تتيح لنفسها اضطهاد البشر ، وتقتلهم بالجملة في سبيل الجشع والربح ؟ من المستحيل ان يخرج الابن العالمي الحديث عن نطاق التفضيل ، تفضيل شيء على شيء ، والدعوة الى الشيء الافضل ، وان هذا ما يؤكد استلهم الواقع في بحث هذه الامور ، ونحن نجد مثل ذلك حتى في ميادين الدعوة لمجتمعات جديدة ، فها رولد لاسكي مثلاً لا يدعو الى الاشتراكية لانه « يعلم » بها ، بل لأن اوضاع الواقع الراهن واشكاله المألوفة هي التي تحتم ظهور الاشتراكية ، ولا يقول بغير ذلك الا اولئك الذين لا يدركون التطور ، ولا الصراع الناشب بين عالم الضرورة وعالم الحرية .. اولئك الذين يستوردون بالبريد « روح » « اشبنجر » ليكتشفوا « روح » « عروبتنا » مثلاً . ومنذ ثلاثين سنة ونحن نتكلم بمثل هذا التفكير في ميادين الأدب والاقتصاد .. الخ .. وقد آن لنا ان نتحرر منه .

٤ - يرى الصديق الاستاذ يوسف ، انه لم يجد في قصيدة « الصامدون » معنى الصمود ! لانني لم انقله - وهنا يستعمل احدي عباراتي ليزمني بها - الى « ذات الحدث » . وهذا الرأي عجيب لانه يصدر من كاتب اقصوصة ناجح ، لا يريد ان يفرق بين موضوع ينتج احداثاً في الواقع وبين موضوع تعبيري ليس الا ، ولهذا كانت مقارنته لهذه القصيدة ، مع قصيدة « احد والحرية والربيع » مغلوطة من الاساس . لان هذه القصيدة تحتل « حدثاً » هو معركة أحد ، وان محاولة ايجاد تصوير لجوانب هذه المعركة لا تقتضيه رواية حادثة كما وقعت فحسب . ولا تقتضيه رواية حادثة من « الممكن » ان تقع فحسب ، ولا لان ضرورة فنية تستدعي ذلك فحسب ، بل لان تناول الاحداث بدون الاعتماد على التفكير الغيبي ، هو الذي يدفع الانسان بالضرورة الى الانتهاز في « ذات الاحداث » ومحاولة نقلها كي تتجرد من المسحة الدينية .

ومهما يكن فالذي اود ان اقول ان قصيدة « الصامدون » تميرية ولا تشير الى اي حدث . ليس صامدوها امام قلعة محوطة بالحديد والنار ، تتفجر احداثاً وحركة ، بل ازاء قيم بائدة ثقيلة الوطأة على النفوس التي تريد ان تتحرر وتنتعق . انه صمود معنوي حيال القيم التي تريد ان تزهق النفوس .

الحق انني ادا فعن لون من التفكير لا عن قصيدة . فانا اعتقد ان كل عمل ادبي عرضة للنقد والتقييم ، ونحن عندما ننحاز الى جانب شعبنا الذي يخوض اقبى الصراعات في سبيل بقائه ، في سبيل الاجاز على الاستسلامية والخوف والخور ، في سبيل تحرره ، نستطيع ان نهتدي الى التفكير الخاص بنا والذي يسدد خطانا . والى الكاتب اخلص تحيات الود والحب والتقدير .

كاظم جواد

بغداد